الاستاذ سنت جورج ميفارت

فاجأنا نعيُ هذا العالم الكبير والكاتب الشهير ونحن نقرأ احتجاجهُ على الذين وقف عملهُ وقلمهُ للدفاع عنهم ونتظر في احتجاج الذين رأوا الحق في جانبهِ فنصروهُ وسفّهوا رأي الذين قضوا بحرمانهِ مما افتداهُ بكل مرتخص وغالٍ. ولقد كنا نعجب باخلاصهِ في الدفاع عن الكنيسة التي اعتنق مذهبها حتى خيل لنا انها على الحق في امر جوهري نخالفها فيهِ ولكن لم يقوَ فينا هذا الخيال ويصير يقيناً حتى رأينا صواعق الحرمان تنهال على رأسهِ فعلمنا كما علم هو انهُ كان مخطئاً. وقبل ان يقول القول الفصل فاجأتهُ سهام المنية في غرة هذا الشهر (ابريل) وهو في الثالثة والسبعين من عمرهِ

ولد بمدينة لندن في العشرين من نوفمبر سنة ١٨٢٧ ودرس في مدرسة الملك واعتنق المذهب الكاثوليكي سنة ١٨٤٤ فحُرم من اتمام دروسهِ في مدرسة اكسفرد الجامعة عملاً بقوانين تلك الايام. ودرس علم القوانين وعلم الطب. واكبَّ على العلوم البيولوجية فذاعت شهرتهُ منذ سنة ١٨٦٢ وعُيّن خطيباً في المدرسة الطبية بمستشفى القديسة مريم واختير عضواً في الجمعية الملكية وفي كثير من الجمعيات العلمية وجُعل استاذاً للبيولوجيا (علم الحياة) في مدرسة لندن الجامعة ومنحهُ البابا لقب دكتور في الفلسفة وجُعل استاذاً لفلسفة البيولوجيا في مدرسة لوفين الجامعة

ولهُ من المؤلفات (١) تكوين الانواع (٢) الانسان والقرود. (٣) دروس في احوال التشريح. (٤) دروس من الطبيعة (٥) الهر (٦) الطبيعة والفكر (٧) الصدق (٨) اصل العقل (٩) مقالات وانتقادات (١٠) اشكال الاحياء (١١) مقدمة في مبادئ العلوم (١٢) الطيور. ولهُ مقالات شتى في كثير من المجلاّت ولاسيما مجلة القرن التاسع عشر ومناظرات علمية مع اشهر العلماء

نشر كتابهُ تكوين الانواع سنة ١٨٧١ فبلغ بهِ اوج شهرتهِ العلمية ولاسيما لانهُ استحق ان ينتقدهُ الاستاذ هكسلي. وكان غرضهُ فيهِ الحط من قيمة الانتخاب الطبيعي في تكوين الانواع ونسبة تكوينها الى الارشاد الالهي فنشبت نار الجدال بينهُ وبين هكسلي وتقاطعا عشر سنوات ثم اصطلحا. ولما توفي هكسلي منذ اربع سنوات رثاهُ ميفارت وعدَّد مناقبهُ في مقالة مسهبة ترجمناهُ ونشرناها في مقتطف ابريل سنة ١٨٩٨ وعنوانها "لا عداء في العلم" ومن قولهِ فيها

"ولقد كان الاستاذ هكسلي صديقاً صدوقاً ثابتاً كريماً. كان جديراً بالاكرام لسمو عقلهِ

واجدر به لكرم اخلاقه وحبه لاصدقائه . وكان ايضاً مخلصاً في بغض خصومه كما كان مخلصاً في حب انصاره ولكن العداء والتأني قلما يجتمعان فاذا خمدت نار الجدال عدل الانسان في احكامه واستبدل بوادر الغضب بالعفو والسماح

واني انتهز هذه الفرصة لبث ما اشعر به مما انا مدينون فيه له ولوصفه كما ظهر لي في احوال مختلفة . ولولا علاقة ما سأذكره من اموري به وبايضاح بعض اوصافه لكنت اتجنب نشره حتماً . وليس من غرضي ان انفي ما كان من الاختلاف بيننا في الآراء ولا ان ابيّن ان الايام واتساع المعارف ازالته كلاً بل ان ذلك الاختلاف باقٍ على حاله وبقاؤه يساعد كثيرين على قبول شهادتي بما للاستاذ هكسلي من الفضل وما يستحقه من الاكرام . وهذا الفضل اعترف له به وهذا الاكرام راسخ له في نفسي ولو جفاني اشد الجفاء . وليس من غرضي ايضاً ان اخوض في مواضيع الخلاف بيننا بل ان اصوّر ذلك الفقيد الكريم لذهن القارىء وأصف اخلاقه كما اختبرتها بنفسي

وقد تطرّف بعض خصومه في دعاويهم حتى ادّعى بعضهم انه يجب على الانسان التمسك ببعض العقائد ولو علم ان العلم سينقضها حتماً . اما هكسلي فرأى جلياً ان الانسان غير مضطر ادبياً الى تصديق كل معتقد وكل قول وان موقف العالم موقف المرتاب الباحث عن الحقيقة . وعلى كل من يستحق اسم العالم ان لا يتنكف من النظر في كل دليل جديد ولو كان مناقضاً لما يعتقد انه من الامور المقرّرة . هذا هو الواجب على كل عالم ومن يخالفه يحتقر قواه العقلية ويحسب انها لا تستحق ان يعتمد عليها

ولما اطّلعت على مذاهب هكسلي في مسائل التشريح والاساليب التي يوضحها بها طلبت الانتظام بين تلامذته ودخلت غرفته لاعرض عليه طلبي وكان يشرّح مرّا من اسماك البحر اظهاراً لاعصابه فرحّب بي ولم يقبل ان اكون تلميذاً له بل ان اساعده في خطبه كصديق . فحضرت خطبه بعد ذلك مدة سنتين . وقد سمعت كثيرين يخطبون ولكن لم اسمع احداً يخطب مثل الاستاذ هكسلي فانه كان فصيح العبارة واضح البيان ينتقي الالفاظ انتقاء نتأتى على قدر المعاني ويملّح الكلام بالنكت الادبية فيشوق السامعين ويروقهم ويتبع الالفاظ بملامح تقرأها العين فتراها منطبقة على ما تسمعه الاذن

وسنة ١٨٦٨ خامرني ريب في مسألة الانتخاب الطبيعي وساعدني على ذلك الاب روبرتس وهو من العلماء المدققين وكان صديقاً لي ولهكسلي . وكنت قد سمعت كثيراً مما يقال في تأييد المذهب الداروني من هكسلي وولس وهيكل ومن دارون نفسه ولكن الريب كان يزيد

في نفسي يوماً فيوماً ولا سيما من حيث علاقة هذا المذهب بالعقائد الدينية واخيراً كاشفت هكسلي بما في ضميري فاندهش من ذلك لكنهُ لم يحل عما عوَّدني من اللطف وكرم الاخلاق. وفي اليوم التالي كنا نتذاكر في هذا الموضوع فادَّت بنا المذاكرة الى الجدال لكن علاقتنا العائلية بقيت على حالها وكنت ادعوهُ الى الغداء مرةً ويدعوني أُخرى . وفي ذات يوم دار الحديث على اطلاق الحرية لكل احد ليعتقد ما يشاء والتفتُّ اليهِ متوقعاً منهُ ان يؤيد كلامي فقال لا تنتظر مني تأييد هذا الرأي فقلت لهُ وكيف ذلك قال ان الضلال يجب ان يزال ولو بالقوة فقلت لهُ انك ادهشتني بهذا القول فهل تبرّر الذين كانوا يضطهدون غيرهم لضلال ينسبونهُ اليهم فقال انهم كانوا مصيبين في الغاية ولو اخطأوا في الواسطة فقلتُ ان حرق الانسان حيًّا لاجل مذهبٍ واسطة قبيحة فقال مازحاً نعم ولا سيما لان اللحم المحروق كريه الرائحة . فضحكنا واقفلنا الموضوع "

وهذه المقالة من ادلّ الادلة على ما اتصف بهِ ميفارت من كرم الاخلاق وبلاغة الانشاء وارتفاع المنزلة بين رجال العلم

وخلاصة مذاهب اليهِ وخالف بهِ داروين وهكسلي وغيرهما من زعماء الطبيعيين ان عقل الانسان غير متولد بالنشوء الطبيعي كجسدهِ لكنهُ هبةٌ الهيةٌ خاصةٌ وقد بحث في هذا الموضوع بحثاً مستفيضاً في كتابهِ الطبيعة والفكر الذي نشرهُ سنة ١٨٨٢ وكتابهِ اصل عقل الانسان الذي نشرهُ سنة ١٨٨٩ وفي مقالات شتَّى بانيًا احكامهُ على بحثهِ الدقيق في تشريح المقابلة فانهُ كان من الثقات في تشريح القرود والضواري وآكلات الحشرات وهو الذي كتب مقالة القرود للطبعة الاخيرة من الانسكلوبيذيا البريطانية

والحادثة الاخيرة التي اشرنا اليها في صدر هذه الترجمة الوجيزة هي ان ميفارت نشر مقالة في مجلة الفورتنايتلي في اول هذا العام قال فيها " ان الخطر العظيم على الديانة الكاثوليكية هو ان زعماءها قلما يبالون بالحقائق العلمية وقد يظهرون العداء لها حتى لو أُعطوا السلطة الكافية لاستجلوا كل نوع من الخداع والتمويه على عقول البسطاء كما دأبت بعض الامور الحديثة " ثم قال اقوالاً اشدَّ وقعاً من هذه واشدَّ ايلاماً في نفوس المسيحيين الذين يعتقدون بالوحي. فما كان من الكردينال فون الانكليزي الاَّ انهُ حرمهُ من تناول الاسرار وكتب لهُ صورة من قانون الايمان طلب منهُ ان يعترف بها ويمضيها بيدهِ . ومن مواد هذا القانون الاعتراف بان اسفار التوراة والانجيل كلها كُتبت بوحي الروح القدس والله نفسهُ مؤلفها . فابى ميفارت ان يمضي هذا القانون قائلاً انهُ لا يعتقد صحة ما جاء في التوراة عن الحية والشجرة وبرج بابل

وسفينة نوح وضربات مصر وتوقيف يشوع الشمس وبقاء يونان حيًّا في بطن الحوت وتحول امرأة نوح الى عمود ملح وتكلم اثان بلعام ونحو ذلك

وكنا نحسب انهُ يتملّق بعض الرؤساء لشدَّة حذرهِ في ما يكتبهُ عنهم الى ان ظهرت مقالاتهُ الاخيرة فاذا هو قد طرح ثوب الحذر كمن ضاق بهِ ذرعا وصرَّح بما كان يلمح اليهِ تلميحًا. وقبل ان يزول صدى اقوالهِ من الآذان ويمحى اثر احتجاجهِ من الاذهان فاجأتهُ المنية فمضى مأسوفًا عليهِ مذكورًا بفضائلهِ وفواضلهِ

عثمان باشا الغازي

ذكرنا في المقالة السابقة ترجمة رجل من اكبر رجال القلم فقدتهُ الامة الانكليزية في غرة ابريل ولم نكد نأتي على ترجمتهِ حتى نعى الينا البرق في الخامس من ابريل رجلاً من اعظم رجال السيف فقدتهُ الامة العثمانية وهو القائد الشهير والمشير الخطير عثمان باشا الغازي

وُلد بمدينة طوقات من اعمال بر الاناضول سنة ١٨٣٢ وتلقى الدروس الابتدائية في المكتب الاعدادي بالاستانة وكان اخوهُ استاذ العربية فيهِ ثم انتقل الى المدرسة الحربية فنبغ فيها وفاق الاقران وخرج منها سنة ١٨٥٣ وجُعل ملازمًا في اركان الحرب بشملة بُعيد شبوب حرب القرم وامتاز بالبسالة وحسن القيادة. ولما انتهت الحرب رقي الى رتبة يوزباشي في الحرس السلطاني ولم يمضِ عليهِ زمن طويل حتى رقي الى رتبة بكباشي وأُرسل مع الجنود الى كريت لاخماد ثورتها سنة ١٨٦٦ و ١٨٦٩ وعاد الى الاستانة بعد اخماد الثورة تُرقي الى رتبة امير الاي ثم الى رتبة امير لواء بعد اخماد ثورة اليمن

ولما نشبت الحرب بين الدولة العلية وبلاد الصرب أُعطي قيادة الجنود التي كانت في مدينة ودن فابدى من الهمة والبسالة واصالة الراي ما جوزي عليهِ برتبة المشيرية . ثم ثارت الحرب بين الدولة العلية والروس وكان لم يزل في مدينة ودن فوُضع تحت امرهِ ٦٨ اورطة من المشاة و١٦ من الفرسان و١٧٤ مدفعًا فتقدم بهذا الجيش الى بلافنا لانها في ملتقى الطرق بين ودن وصوفيا وشبكة وبيلا وزمنترا ونيكوبولي وموقعها الطبيعي من امنع المواقع . ولقي الروس هنالك وكرهم واضطرهم الى تغيير خطتهم الحربية ونزل في بلافنا وحصنها امنع تحصين فحاصرهُ الروس حصارًا شديدًا فخرج اليهم في ٧ سبتمبر واوقع بهم وكان في جيشهم ٧٥ الف راجل و٦٠ الف فارس فخسروا نحو عشرين الفًا بين قتيل وجريح . ولما بلغ خبر هذا النصر الحضرة السلطانية